كلمة رئيس الجامعة الأب البروفسور جورج حبيقة في مؤتمر علمي لإطلاق مشروع بحثي وتطبيقي

تحت عنوان " المجاعة الكبرى في لبنان (١٩١٤-١٩١٨): مقاربة علمية"

الكسليك في ٧ كانون الأول ٢٠١٧

يطيب لي أن أرحّب بكم فرداً فرداً في حرم جامعة الروح القدس الكسليك، جامعتكم جميعاً على حدّ سواء. ويشهد التاريخ الحديث لهذه الجامعة الوطنية لإسهاماتها الكبيرة في تفعيل عمل العقل والروح، نصرة للقضايا الإنسانية، في لبنان بخاصة والشرق بعامة.

ويسرني أن أعرب عن فرحي الشديد بهذا التعاون القائم بين جامعة الروح القدس الكسليك وشركة جرجي الدكاش وأولاده، خدمة للبحث مع نخبة ألمعية من المفكّرين، وأهل العلم والمعرفة والخبرة، للإحاطة الموضوعية بمسألة المجاعة الكبرى، التي ضربت لبنان أبان الحرب العالمية الأولى، وبتداعياتها المأساوية، بخاصة في ما يتعلق بالبنية الجينية والفيزيولوجية للإنسان اللبناني، موضوع المؤتمر العلمي وورشة عمله وبحثه.

كما إنني أسوق شكراً عميقاً إلى شركة جرجي الدكاش وأولاده، الممثَّلة بمديرها، الاستاذ شوقي الدكاش، لدعمها المشروع البحثي والتطبيقي حول المجاعة الكبرى في لبنان. إن الدعم المادي والمعنوي لهذا المشروع

الرائد لهو بمنزلة فعل إيمان بأن الجامعة، كانت ولا تزال، المرجعية العلمية في سبيل بلوغ "حقيقة" تجريبية ممحصة بالتيقن الاختباري المستند إلى المعرفة والمصداقية.

وأوجّه الشكر الخاص إلى الدكتوره لارا حنا واكيم، عميدة كلية العلوم الزراعية والغذائية، لرعايتها مراحل إنجاز هذا المشروع البحثي والتطبيقي، ولاهتمامها البالغ في مقاربته العلمية، ليكون عملاً طليعياً في مجال العلم والمعرفة يسجِّل تقدماً نوعيّاً في حقل العلم والإبداع. وأخص بالشكر الدكتور عفيف عبد النور، المسؤولَ عن لجنة الدكتوراه في الكلية، الذي سيقوم بهذا البحث الشاق والدقيق والواعد. أغتنمها فرصة لأحيي فيه الكفاءةَ العلمية العالية والاندفاع البحثي الذي لا يلين ولا يخفت.

كما ولا يغيب عن بالي التّقدم بالشكر أيضاً من عميد كلية الطب والعلوم الطبية، البروفسور جان كلود لحود، ومن مركز فينيكس للدراسات اللبنانية في مكتبة الجامعة، بإدارة الأب الدكتور جوزف مكرزل، ومن كلّ استاذ وباحث سيكون له النصيب الفعلي في هذا البحث العلمي.

واسمحوا لي، تتويجا للائحة الأشخاص الذين علينا واجب التقدم منهم بواجب الثناء، أن أتوجه بكلام امتناني خالص من صاحب السعادة النائب والصديق العزيز نعمة الله أبي نصر، الذي لم يتوان يوما عن إثارة المسائل الوطنية الجامعة والدفاع عنها بقوة وحزم، ابتداء، على سبيل المثال لا الحصر، بفضيحة التجنيس العشوائي ومرورا بإقرار يوم الأبجدية وانتهاء باقتراح قانون معجل مكرر لإقرار "يوم ذكرى المجاعة الكبرى"، في الثاني من أيار، من دون أن يكون يومَ عطلةٍ رسمية، ممهورٍ بتوقيع عشرة نواب، تتولى وزارتا التربية والشؤون الاجتماعية تنظيم هذه الذكرى الأليمة والموجعة، تخليدا لبطولات شعبنا على مر العصور وانتصارهم على نوائب التاريخ وويلاته.

وأشكر أيضاً جميع وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة التي ستغطي وقائع هذا المؤتمر.

إننا، في الواقع، في زمن التحضير للاحتفال بالمئوية الأولى لولادة لبنان الكبير، وفي أقلّ من يومين وجدت نفسي ألقي كلمة افتتاحية في ندوة الخامس من كانون الأوّل، حول "مفهوم السيادة الوطنية"، وفي المؤتمر العلمي، في السابع من كانون الأوّل، حول "المجاعة الكبرى في لبنان..."، ويكاد الموضوعان، على اختلاف عنوانهما، لا يتعارضان في الأهداف الآيلة إلى إبراز صورة لبنان القادر على تجاوز الحملات العبثية لإلغائه أو لتغيير وجهته، عبر مناعة استوطنته من رحم الآلام المتعاقبة، والقادر على تجاوز المحن الأليمة الظالمة بالصبر والحكمة والتعقل والإيمان.

ولئن كان مؤتمركم يتناول المجاعة الكبرى في لبنان بشكل مقاربة علمية بهدف استخراج حقائق علمية، إلا أن المجاعة، والحقّ يقال، هي بحدّ ذاتها حقل علم وتجارب، بما تقدمه للنظر من صدمة، وبما تفرزه في القلب من نقمة، وبما تبثّه في الضمير من ارتجاج يسوق الفكر طوعاً إلى الاستنجاد بربّ العالمين مسائلا إياه: لماذا؟

ولئن نحن اليوم في زمن التضارب الغذائي على المستوى العالمي، نتأرجح بين مجتمعات الاستهلاك والشره، الذي يفوق حاجة المرء، والواقع الذي يقضّ مضاجع البحاثة والعلماء، خوفاً من ديمغرافية عالمية توسعيّة قد يبلغ بها عدد سكان الأرض، في العام ٢٠٥٠، ما يناهز التسع مليار نسمة، فتعجز خيرات الأرض حينها عن توفير الأغذية للبشرية جمعاء، وإن تمكّنت بكيميائياتها أن تعصمك من الجوع فلا تصونك من المرض، وبين مأساة المجاعة وأسبابها، وكأنك تقارب ما ليس مألوفاً أو ما لا يمكن أن يكون أو ما لا يتصوره عقل.

إن المجاعة حقيقة وواقع، هي حقيقة اليوم والأمس، وهي هاجس الغد... إنها الاختبار الأليم لإنسانية هنا وهناك منزوعة السلاح، منزوعة المال، منزوعة السلطة، فريسة الأطماع، سلعة مهمّشة، تمضي خيالاً في مكابدة المصير المفجع على أنه شهادة على غياب الضمير الإنساني، في أزمنة المحنة، وعلى عجز العصيان في فترات الشّدة.

إن وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، على تنوّعها، تنقل لك يوميّاً مشاهد حيّة عن المجاعة، وبخاصة تلك التي تطيح باليمن وبجنوب السودان، ونجيريا والصومال، فتصدمك وجوه النساء وقد جلد الجوع خدودها إلى حدّ جعلها مسكناً لأزمة استكان لها الضمير العالمي، وتطالعك وجوهُ أطفال، أشبه بجلد مجفف يلف عظاما متآكلة، وجوهٌ افتقرت إلى هناء الطفولة وشاخت قبل أوانها.

أمّا مجاعة لبنان الكبرى، وهي واحدة من الفواجع الكثيرة التي عرفها لبنان في تاريخه الحديث، فلم تنتج عن أرض قاحلة تفتقر إلى الماء والهواء، ولا عن مواسم عجاف، بل هي نتاج الصراع بين الدولة العثمانية والدولة الفرنسية، وقد رسم مسارها بحنكة جمال باشا السفاح، مستخدماً المدن اللبنانية بشكل عام ومناطق كسروان والبترون وجبيل بشكل خاص، بالإضافة إلى بلدة دير القمر المعزولة عن المساعدة التي كانت تصل للشوف من حوران، بهدف الضغط على فرنسا لتغيّر سياستها من جهة، وبهدف طرد السكان اللبنانيين، من جهة أخرى، من أرضهم، واقتلاعهم من جذورهم.

وتأتي أسباب مجاعة لبنان الكبرى جزءاً من مخطّط عثماني، مطلع القرن الماضي، يندرج في سياق الإبادة الجماعية لمحمل الأقليات التي كانت ترغب في الإنسحاب من رحم العثمنة والاستقلال عنها.

ولئن كانت السياسة العثمانية قد ضخّت في الأقليات، في زمن تراجع سلطتها، الروح الثورية التي ترنو إلى الإستقلال، فإن قرار قطع دابر هذه الروح الثائرة على الظلم والعنف والاستبداد، تحقّق بفعل إرادي، وعن سابق تصوّر وتصميم، هدفه القضاء على اللبنانيين عن طريق التجويع، وتحويل اللبناني إلى حالة بهيمية قد لا تجد الرحمةُ سبيلاً إليها.

وتدور رحى الحرب، وتملأ جعجعة المعارك الفضاء من أقصى المسكونة إلى أقصاها، وتتخرب المدن الجميلة، وتتهدم الحصون، وتتغطى السماء بقتام البارود، وتمطر القذائف الناس ناراً وموتاً، وتشقّ أصواتُ الناسِ كبدَ السماء تلتمس من الله عوناً يمكّنهم من الخروج من حصار بحري وبرّي، سجنهم في دائرة الجراد الزاحف إليهم إلى جانب الجيوش العثمانية الغازية، لتلتهم الأخضر واليابس، ولتقطع الحنطة والحبوب عن السكان، فلا تلوي على روح. هنا النار تُشبع نهمها من أجساد الناس، وهناك المشانق تُنصَب للأبرياء،

وأينما كان تُقطَع أسباب الارتزاق ومصادر العيش، وتفتك ذئاب المجاعة بالكبير والصغير، وتصبح الأرض مدى للعذاب وخندقاً للموت.

ولا يكفي العنفَ العبُّ من هذا المشهد، فإذا بالدولة العثمانية تمنع اللبنانيين من وسائل النقل، فالسكة الحديدية انقطعت لأجل الخدمة العسكرية، وتجمعت الخيل والبغال والجمال وحتى الحمير كي لا يتمكن اللبناني من التنقل بحثاً عن لقمة عيشه... وناهيك عن منظر اللبناني يسير مسافة يومين أو أكثر علّه يجد طعاماً لعائلته، فتكون الحصيلة جنوداً ينصبون كميناً له هنا أو هناك، يسلبونه زاده أو يكسرون جرّة زوجته وفيها قليل من ماء البحر المالح لتملح به عجينها، ويردّونها فارغة اليدين بائسة يائسة.

ولم تنتهِ المجاعة الكبرى عند هذا الحدّ من الظلم، فمن فقدان بلدات سكانها إلى آخر نفر فيها، إلى انحسار ما يسمّى أدنى حقوق الانسان، إلى بيع اللبناني كل ما يملك بثمن كسرة خبز يسدّ بها جوعه، إلى انتشار الرِّبا الفاحش، إلى بيع النساء أثوابَهن وحلاهُن، إلى الاصطدام بأطفال عراة حفاة يلتهمون ما تبقى من البلوط والخرنوب وأصول النبات والأعشاب... وصولاً إلى الانكباب على الجيف... إن اللبنانيين الذين حوّلتهم المجاعة إلى مخلوقات بهيمية يشكلون علامة استفهام للبحث العلمي اليوم، الذي سيقارب تداعيات واقعهم على العقل والجسد والنموّ والتصرّف والتعامل والتلقّي والتواصل..

إن ما يثير الاهتمام في هذه المجاعة الكبرى التي نزفت دماً وهمجيّة وألماً وعنفاً ووحشية، وكلها أمور غير مسبوقة في تاريخ البشر الحديث، لم تجد لها مُعينا، لا من قبل الحكومة المحلية ولا من قبل الطبقات البورجوازية...ممّا يؤكّد لنا استراتيجية الدولة العثمانية الإجرامية، للتخلص من اللبنانيين، ضحايا المجاعة، وقد ذكرت الدراسات الإحصائية لعام ١٩١٧ أن عدد ضحايا المجاعة قد بلغ ١٥٠,٠٠٠ نسمة، وأن بعض قرى وبلدات كسروان فقدت ما يقارب ال ٤٠ % من سكانها.

وفي محصلة تقريبية توصّل إليها المؤرخون، إبان المجاعة الكبرى، مات ثلثُ الشعبِ اللبناني، وهاجر ثلثُهم، وبقي ثلثُهم على قيد الحياة، خائري القوى، فاقدي الحسّ، جاحظي العيون، يتآكلهم الورم، وينتظرون،

في أحسن حالاتهم، موتاً يتأخر قطارُه يسيراً. هذا إن لم يرمهم الجيش العثماني ضرباً وطرداً ليموتوا بعيداً، خارج المدن والبلدات، تأكلهم الوحوش أحياء.

وحدها الأديار، في تاريخ المجاعة، قدّمت ما تيسّر للبنانيين من مساعدات للحدّ من فتك المجاعة، حيث استطاعت، ولم تنجُ هي بدورها من الظلم والملاحقة.

وفي هذا الصرح الجامعي، سيجري البحث العلمي والتطبيقي ليلقي الضوء على تداعيات المجاعة الكبرى على النسل والنموّ والنقل الجيني وهذه سابقة في حقل المعرفة.

وختاما، أرجو للباحثين كلّ التوفيق، علَّهم يتوصلون إلى رفع اللثام عن موروثات جينية من تلك الحقبة، قد تنيرُ السبيل إلى رسم مخطط علاجي لأمراض غامضة ومستعصية. وشكرا.